«مرايا المروءة: قبس من مفهوم الحب عند العرب في العصور الوسيطة»

أبو بكر أحمد باقادر

مقدمة: الحب/المروءة

تناولت كتب الأدب العربي موضوع الحب من زوايا مختلفة، ويمكننا القول إن موضوعات العلاقة بين الحب والمرأة والجنس والعفّة من الموضوعات الأثيرة في الأدب العربي القديم والوسيط، ولعلّ ما قيل في الغزل أو ما أوردته كتب الأدب من قصص وطرائف يكاد لا يخلو منها كتاب من كتبهم. ولقد تناول فقهاء كبار من أصحاب المواقف الفقهية المتشددة نسبياً: الحنابلة والظاهرية – من أمثال داور الظاهري وابن حزم وابن قيّم الجوزية موضوعات الحب والعشق والغرام بوصفها موضوعات تعكس إلى حدّ ما درجات في العلاقات بين الناس. أما الشعراء ولا سيما الماجنون المبدعون من أمثال أبي نواس وبشار بن برد وغيرهما فقد تناولوا موضوع الحب والغرام بشكل حسي، لكن بمسحة إنسانية تؤكد الطرافة والاستملاح والخروج على الآداب العامة مع قوة في التخييل ورشاقة في التعبير. لكن وعلى الرغم من حسية الكثير من هذه الأشعار وخلاعتها فإنها كانت واسعة الانتشار ومقبولة لدى جمهور محبي الأدب بوصفها أعمالاً «أدبية»، رغم خدشها للحياء أحياناً.

ولقد تناولت الصوفية، وبشكل إبداعي رفيع المستوى، موضوع الحب، لكن عن طريق نقل الوصف الحسي إلى وصف رمزي يؤكد العلاقة

بين العاشق البشري والذات الإلهية. ولعل أعمال الشعراء الكبار من أمثال أبي الفارض ومحيي الدين بن عربي والشعراء الفرس الكبار من أمثال جلال الدين الرومي وحافظ ورودكي وغيرهم كثيرون تعكس هذا الواقع وكيف أن الحب هنا أخذ أبعاداً رمزية في غاية السمو والروحانية.

ويغلب على الشعر، بل وحتى في بعض القصص، الوصف الحسي للمرأة أو الوصف الخلاعي للعلاقة بين الجنسين، سواء كان عنصر النرجسية أكثر وضوحاً وتأكيداً كما هو الحال عند ابن أبي ربيعة وبشار أم مجرد نزوات توصف بتفصيل كما هو الحال عند أبي نواس. لكن على الرغم من ذلك، فإن هناك أنواعاً من الغزل، تسعى إلى أن تكون غير حسية، معنوية، تصف حالة الوله والتعلق والولع وحب المحبوب بشكل يؤكد على طهريته وسموه. ولقد ظهرت في الأدب العربي ظاهرة ما عُرف بالحب العذري.

لكن يمكننا القول إجمالاً بأن العرب وإن كانت تقبل على شعر الحب والغزل وقصصهما وأخبارهما إلا أنها وبسبب منظومة قيم تُعرف بالحشمة والشرف والسمعة والعرض لا تقبل التشبيب أو التغزل ببناتها، رغم أن الغزل، كما يقال، يجعل الفتاة معتزة بنفسها فخورة بجمالها. وفي أعراف بعض العرب لا يمكن للبوح بمشاعر الحب والغرام – إن عُرفت وتأكد أمرها – أن تؤدي إلى زواج أو قبول من أسرة الفتاة. ولعل ما هو معروف شعبياً عن حب قيس وليلى أو كثيّر وعزّة بل عنترة وعبلة في الوجدان الأدبي العربي لم ينته بزواج هؤلاء العشاق بفتياتهم!

سنتناول في هذه الورقة علاقة الحب بمفهوم محوري في الحياة العربية هو المروءة. وكما يوضح جولدتسيهر، فإن المروءة عند العرب – وبالذات في الجاهلية – كانت مدار الأخلاق ومفتاحها في مجالها العملي. فالدافع لعمل الخير وتحمل النتائج المترتبة على ذلك هو المروءة. ويمكننا إجمالاً تعريف المروءة – في سياقنا – بالعمل الحسن الصالح حتى لو كانت له نتائج سلبية أو ضارة بالذات، فمقابلة تلك المخاطر تعد من المروءة. والرجل صاحب الأخلاق عليه أن يتحمل ويصبر من أجل الغير إيثاراً ومروءة.[١]

والنص الذي نسعى إلى تحليله هنا يدور حول قصة حب خاصة جداً، انفضح أمرها بشكل مفاجئ ولكن في سياق ملتبس – أي لا يُعرف لماذا كان الفتى العاشق

(١) Ignaz Goldziher, **Muslim Studies**, London: George and Unwin Ltd, 1967, PP. 11-44.

في المكان وفي الزمان اللذين وجد فيهما، وكان المنتظر إنقاذاً للذات توضيح أمر علاقة الحب القائمة والسعي إلى الوصول إلى حل، غالباً ما يكون منجى للذات وتبعاته، في أحسن الأحوال «غسل العار» عن أسرة المعشوقة، أو الحسم في أن لا تنتهي مثل هذه العلاقة بنهايتها السعيدة: الزواج. وكما سنرى كانت أمام العاشق خيارات عديدة، لكن المروءة تقتضي العديد من التضحيات والإيقاع بالذات. والسؤال هو: كيف تم ذلك في سياق الثقافة السائدة في المجتمع والثقافة العربية الوسيطية.(٢)

تفكيك الحكاية: من ملاحقة «اللص» إلى تحرير العاشق

ورد النص في كتاب من كتب «الأدب» في طبعته أو صورته الشعبية، فهو يدعي أنه كتب بما يشبه الفصحى، لكن أسلوبه ومحتواه أقرب إلى ذوق عامة الجماهير، وموضوعاته يغلب عليها ما يدور في أوساطهم. وهو مقدّم في قالب حكاية، كمعظم ما قُدّم في الكتاب الذي ورد فيه النص. لكن الكتاب يقدّم قصصه على أنها من الأدب الواقعي، بمعنى أنها قصص يمكن تتبعها ومعرفة أبطالها الحقيقيين، فهي حكايات عما جرى وتداوله الناس مشاهدةً ومعرفةً عيانية. والحكاية تُنسب إلى راوٍ مشهور وإن كان مختلف في أمره، ويقدّم النص الحكاية على أنها من الحكايات التي عاش الراوي أحداثها أثناء قيامه بعمله الميداني في جمع الروايات والحكايات العربية من أفواه العرب في البوادي.

فيوضح الأصمعي تأكيداً على صدق الحكاية أنها حكاية وقعت في البصرة، عندما كان يهم بزيارة بادية بني سعد. ولا ندري هل أبطال الحكاية من العرب، ممن تعود أصولهم إلى البادية وبادية بني سعد، فهذا أمر يتركه النص لك، والربط وارد وإن جاء عابراً في النص! ويؤكد الراوي وقوع الحكاية في زمن وتاريخ محدّدين، ولا بأس بأن يكون في ولاية حاكم مشهور من حكّام البصرة وممّن تميّزوا بالنباهة وتذوّق الأدب وحسن التصرّف والعدل، لذا اختار صاحب الحكاية أن يكون الحاكم هو خالد عبدالله القسري.

ولكي يكون الراوي أكثر دقة وتحديداً، فلا بد أن تكون روايته لما رأى، وإخالنا نكون أكثر تصديقاً إن كان الراوي متمرساً حاذقاً في فنون الرواية من ناحية، وصاحب أدب ومعرفة بأحوال العرب وأخبارهم من ناحية أخرى. فالحكاية التي

(٢) محمد دياب الأتليدي: **أعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس**، بيروت: دار صادر، ١٩٩٠.

سنجيء على ذكرها هي حكاية لما وقع، ومشاهدة لما تمّ أمام الراوي. بطبيعة الحال لا نستغرب دخول شخصية أدبية معروفة على الوالي، ويزيد من صدق ذلك أنه من أهل الأدب، ومن ثمّ فهو يقدّر أصحابه، ولعلّ زيارة الأصمعي، وإن كانت زيارة مجاملة للوالي، إلاّ أنها يمكن أن تكون أيضاً من أجل مساعدته في عمله الميداني في بادية بني سعد!

«اللص» وقوم الفتاة

ثم يورد الأصمعي قصة أسرة تحيط بشاب تتّهمه بأنه لص، وجدوه في دارهم فيرفعون أمره إلى الوالي للحكم عليه. قصة بسيطة وواضحة ولعل عقابها أيضاً واضح. لكن السرد المقدّم يقدّم العديد من الإضافات التي تلفت النظر وتتطلب تفسيراً. بل ربما شكلت لهذا السبب بعض بذور الشك في صحة ظاهر الحكاية وإمكانية قبولها. فما هي هذه الإشارات السردية؟ أولها، تقديم صفات تفصيلية عن الشاب: «ذي جمال وكمال وأدب ظاهر، بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزّة، عليه سكينة ووقار.» والصفات والخصائص التي يوردها النص، تحيلنا إلى صفات وخصائص غائبة هي صفات وخصائص من يمكن أن ينطبق عليه وصف «لص» أو «سارق». فمن مجمل الصفات لا يمكن أن تكون مبرّرات «السرقة» الحاجة أو بعبارة أخرى دوافع مادية، فهي متوفّرة فيه. كذلك – بحسب الصفات المذكورة – لا تنم شخصية الشاب الاعتبارية وسلوكه الشخصي على أنه ممن يقدمون على عمل إجرامي أو مؤذٍ مخرّب ضد الآخرين، ومن ثم فإن دافع حب التخريب أو السلوك الشاذ يكاد يكون غير وارد.

إذن بذكر هذه الأوصاف التي يبدو للوهلة الأولى أنها من المحسنات والإضافات غير الضرورية في النص، ما يمكن أن يكون محرضاً لمزيد من السرد ومن ثم سبر المشكلة أو القضية المعروضة أمام الوالي. والغريب في الأمر أن أهل الدار ويسميهم السرد «قوماً»، هم مجموعة من الناس تنتمي إلى عصبة واحدة، لم يكونوا هم أيضاً على قناعة بالسرقة، فهم لم يكونوا يمسكون بثياب الشاب وإنما كانوا «متعلقين به». وهنا يمكننا القول إن العبارة تميل إلى الإحاطة به دون عنف أو قسوة وإنما كانوا حوله، لعلهم في دهشة من أمره، فكيف يكون سارقاً وهو على تلك الشاكلة؟! وكل ما فعلوه هو أنهم «قدموه إلى خالد.» وكان على الوالي أن يسألهم عن قصته، مما يعني أنهم لو بادروا وقالوا «حرامي في دارنا»، لكانت حكايتهم نوعاً ما غريبة! فجاءت عبارتهم محايدة باردة: «هذا لص أصبناه البارحة في منازلنا.»

والتهمة بهذا الشكل عرضية، فلقد وجد في منازلهم، ومن ثم فالعبارة – التهمة – نوعاً ما غامضة.

«الشاب» والوالي

ويورد الراوي أن الوالي عندما نظر إلى المتّهم: «أعجبه حسن هيئته ونظافته» وهو إعجاب، يظهر من الوهلة الأولى أن لا علاقة له بالتهمة، لذا أمرهم بأن يخلوا سبيله، ليستوضح الحكاية من المتهم. وهنا أيضاً كان المتوقع من أن يوضّح المتّهم بتهمة عامة غير مؤكدة، أن في الأمر التباساً أو مفارقة قد توضح الأمر وتنهي الحكاية. لكن من الواضح أن السارد لا يريد ذلك، لذا كانت إجابة الشاب المتّهم: «إن القول ما قالوه والأمر على ما ذكروه.» وهي إجابة صادقة في موقف كهذا في المتوقع أن يبادر فيه المتّهم إلى الدفاع عن نفسه، خاصة وأنه على الحالة التي وُصفت!!

إنه أمر محيّر، فالإجابات الصادقة الخارجة عن المتوقّع، تثير التساؤل أكثر ممّا تؤكد ما يذكر من دوافع وأسباب منطقية ظاهرة. ومن ثم فإن صياغة الإجابة بالشكل الذي جرى على لسان الشاب تبذر بذور أسئلة إضافية أكثر ممّا تساعد على قبول التهمة أو الواقع القائم. وهنا يدخل السرد سؤال الوالي خالد: ما حملك على ذلك وأنت في هيئة جميلة وصورة حسنة؟! إذن، الوالي يقول للمتّهم أكاد لا أصدق أن ذلك الفعل وقع منك وأنت على ما أنت عليه من صورة.

لكن الشاب المتّهم على ما يظهر لا يزال يعاند في إجاباته من خلال التأكيد على أن الأمر لا يحتمل السؤال عن الدوافع الحقيقية، فذاك أمر وراءه ما وراءه، لذا دعانا نأخذ بالظاهر. وهكذا يقدّم السارد إجابة بتكرار إقرار الشاب دون أسباب تدعوه لذلك: حملني الشره في الدنيا، وبذا قضى الله سبحانه وتعالى!

لكن من الواضح أن هذه الإجابة لا يمكن أن تكون صحيحة صادقة، فكانت ثورة الوالي وتعجّبه: أما كان لك في جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر لك عن السرقة؟ صياغة سؤال الوالي بهذه الصورة، صياغة تؤكد ما لم يُذكر في النص، وهو معروف عن خالد القسري، أيّ أنه والٍ مشهور بالذكاء والعدل، وله فراسة وقدرة على فهم الأمور وحسن التعامل معها.

لكن الشاب المتّهم الذي على ما يظهر يدرك هذه الخصائص والصفات في الوالي، لا يريد من الوالي أن يتعمق في حكايته، وإنما يرغب منه أن يتعامل مع ظاهر

الحكاية واعتبار إقراره دليلاً واضحاً على جرمه وما اقترفته يداه. بل ويسعى المتّهم إلى استفزاز هذا الوالي الحكيم ليستعجله في حكمه: «دع عنك هذا أيها الأمير، ونفّذ ما أمرك الله تعالى به، فذلك بما كسبت يداي وما الله بظلاّم للعبيد!!» عبارات السرد واضحة، فهي تستعجل البتّ في القضية المرفوعة أمام الوالي، والمتّهم يدين نفسه بشكل واعٍ، ويحثّ الوالي على التعجيل في إصدار «حكم الله فيه!».

ولكن من المفترض أن لا يكون والٍ كخالد القسري في عجلة من أمره لاتخاذ قرار، وإن فعل ذلك لم يعد خالد الذي تذكره كتب الأدب بالصفات والشمائل المعروفة بالفراسة والقدرة على الحكم. لذا يسرد الراوي المعلومات التالية: فسكت خالد ساعة يفكر في أمر الفتى، وما كان عليه إلا أن يفاجئ الشاب بأمر ظن الشاب أن ما ذكره قد لُبس على خالد فيه.

كان على خالد أن يوضح أن ما ذكره الشاب عبارة عن اعترافات وأقوال لا يجعلنا التناقض بينها نركن إليها. لذا اقترب منه خالد وقال له: إن اعترافك على رؤوس الأشهاد قد رابني وأنا ما أظنك سارقاً، وأنّ لك قصة غير السرقة فأخبرني بها! هل كان الوالي مستعجلاً في رأيه؟ أم هي فراسته؟ أم هي وسيلة ليتأكد بها من براءة الشاب أو جرمه؟

بهذه الأسئلة يزداد السرد غموضاً إذ يمعن الشاب في إصراره على موقفه. فبدلاً من أن يفتح مجالاً للشك من خلال إجابات مخاتلة تحتمل أكثر من رأي، نجد الشاب يمعن في التمسك بالقناع الذي يصرّ على ارتدائه – كما يفضحه النص وتدفق السرد. وهكذا نجد أن النص يحيلنا إلى إجابة من المفترض أن تكون نهائية، إذ يقول الشاب المتّهم: «أيها الأمير (وليس الوالي)، لا يقعْ في نفسك سوى ما اعترفت به عندك، وليس لي قصة أشرحها لك إلا أني دخلت دار هؤلاء (باستخدام ضمير يدل على الغفلة أو الجهل بهم!) فسرقت منها مالاً (دون تحديد، بل ربما لا يكون بحوزته شيء منه إمعاناً في الاستدراج بأن الحكاية برمّتها لا يعنيه منها سوى نتائجها لا حقيقتها فأدركوني) وأخذوه مني وحملوني إليك.»

من الواضح أن السرد يدفع القارئ إلى حقيقة أن الشاب مصر على روايته وقابل سلفاً بنتائج عناده وعدم دفاعه عن نفسه، وأنه لم يترك مجالاً لإمكانية الدفاع عنه، لكن قوة بيانه وثباته على الرأي، في موقف يستلزم عادة عكس ذلك، يشكل مفارقة تجعل أسلوب السرد يدفع القارئ إلى توقّع أن الوالي (الذي أصبح أميراً في خطاب المتهم!) مطالب أكثر منه في أي وقت آخر بأن يشكك في الرواية، رغم

الاستفزاز. ولعل توجه السرد يدفعنا إلى توقع اختبار ملكات وقدرات خالد القسري وقدراته التي اشتهر بها، والسؤال هو: كيف سيتصرف الوالي في وجه هذا الاستفزاز والإصرار على إدانة الذات؟!

لن نتوقع أن يرضخ الوالي لرأي الشاب ويحقق له مبتغاه، لأنه إن فعل، فلن تكون هناك حكاية، ويصبح الأمر مجرد مرافعة عادية تقع يومياً، ومن ثمّ لا تستحق أن تُحكى وتسجّل، بل وأن يقدم الأصمعي على روايتها! لكن يجب في الوقت نفسه أن يحافظ السرد على زاوية الرؤية وهي هنا، بالضرورة، على التشويق وعدم البوح بما يمكن أن تؤول إليه الأمور. فمن الواضح أن خالد القسري في ريب وشك من أمر هذا الشاب، لكن الشاب يعتزّ، وأصحاب المعرفة ملمّون بأصول المحاكمة العادلة، إذ هل يعقل أن يبنى الحكم على حسب الأهواء أو الفراسة دون وجود دليل ملموس يمكن إبرازه؟!

هنا اختار السارد عبارة تعتورها ثغرات في الظاهر، إذ تقدم معلومات ليس من المهم ذكرها بهذا التفصيل: «فأمر خالد بحبسه.» كان يكفي ذلك، لكن أن ترد فيها العبارة التالية أمر محير: «وأمر منادياً ينادي في البصرة: ألا من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد.» هذه الجملة الإضافية ما أهميتها في الأمر؟ فالشاب مقرّ، وحبسه ما هو سوى إجراء متّبع لتقديمه أمام القاضي الذي سينزل به على الأرجح عقوبة السرقة؟!

بهذه الإضافة الزائدة عن المطلوب يثير السرد استفسارات عن مقاصد خالد القسري، ولماذا يرغب في الاحتفال بإنزال عقوبة السرقة بشاب يشك أصلاً في أنه قام بها. فردع جماهير الناس عن اقتراف الجريمة بإعلان القصاص، أولى أن يكون في حالات واضح أمر الإجرام فيها، وبشرط أن يكون قد أثار من المخاوف والرعب في الأهالي ما يتطلب ردع من تسوّل لهم أنفسهم بالخروج على القانون وترويع الآمنين. لكن مثل هذا الإجراء في مثل هذه الحالة لا معنى له.

كذلك سنتوقع أن يبدأ الشاب يخاف على ذاته من عقوبة يعرف سلفاً نتائجها، ومن ثمّ سيبدأ في مراجعة الذات والسعي إلى حمايتها. فهذا هو الأمر الطبيعي والمنتظر لمن هم في حالته. لكن السارد يمعن في تقديم شاب لا مبالٍ وإن كنا لا نزال نعرفه بالصفات التي جاء النص على ذكرها. المتوقع إذن أن نسمع نوعاً من التشكي والدفاع عن الذات والنفس من مغبّة قصاص سيُنزل به لا محالة إن مضت الأمور على ما هي عليه.

«العاشق» والقضاء

لكن بدلاً من الخوف والرجاء والتطلع إلى وقوع أمر ما قد ينقذ الموقف، يفاجئنا النص بعبارة «فلما استقر الفتى في الحبس ووُضع في رجليه الحديد (أي ثبوت أن الأمور جدّية والنهايات لا تبدو مريحة على الإطلاق)، تنفس الصعداء»!! عبارة «تنفس الصعداء» صادقة في هذا الموقف، فالشاب دون شك لا يظهر عليه أنه مازوشي النزعة، كارهاً لذاته لا يرغب في الحياة عازفاً عنها. بل يظهر العكس، الشاب يتميز بحسن الهيئة والنظافة الدالة على الإقبال على الحياة وحبها وهو مما تظهر عليهم علامات السكينة والوقار، لا يعاني اضطرابات أو مشاكل نفسية، وهو يتمتع بجمال وكمال في الأدب، وهيئته تدل على أنه يعيش رغد العيش، فلماذا يدير ظهره لكل هذا ويسلك بوعي طريق المهالك والصعاب؟! سؤال محير، وتزيد عبارة النص في تأجيج هذه التساؤلات لو أن السرد لم يعقب تلك الجملة مباشرة بأبيات توضح لماذا «تنفس الصعداء»!

الأبيات – كما وردت – تؤكد أن الشاب مصرّ على أن لا يبوح بسرّه! أي أن عبارة «تنفس الصعداء» تبيّن شعور الشاب أن خالد القسري قد صدّق روايته وأن حكايته قد انطلت عليه، وفي الوقت نفسه توضح للقارئ أو لسامع السرد أن في الأمر شيئاً يبرّر تشكيك خالد وريبه في أمر الشاب، وأن الحكاية تدور حول فتاة يحبها ولا يريد أن تُعرف قصّة حبّه لها ويؤكد ذلك البيت الأخير:

قطع يدي بالذي اعترفت به أهون للقلب من فضيحتها

إذن فالشاب وإن كانت له قصة أخرى، إلا أنه تنفس الصعداء لأن محبوبته – كما يظهر – لن تفضح، ومسألة قطع يده ليس فعلاً مازوشياً وإنما عمل يقوم على أساس أخلاق المروءة والمثالية في الإيثار ولو كان الأمر عقاباً قاسياً ينزل على الذات!

أي أن النص غرس في المستمع أو القارئ صورة أخرى إيجابية للشاب وولّد نوعاً من التعاطف الوجداني مع «صريع الهوى» هذا. ومن هنا فإن المتوقع أن يعرف الوالي حقيقة أمر الشاب، وأن يستخدم فراسته وقدراته للدفاع عنه، ولحماية المحبوبة من أي ضيم في الوقت نفسه. ومن ثمّ قد يتساءل القارئ إذا كانت خطة خالد سوف تنتهي بالتشهير وإنزال العقوبة، لو لم يكن خالد أذكى مما ورد في السرد.

بمعنى آخر، يغرس السرد بذرة شك في نوايا خالد فيما أعلن والإجراءات التي

اتخذها من سجن الشاب ووضع رجليه في الحديد. ويظهر أن السرد يقتضي إيجاد مخرج أو وسيلة تبلّغ خالد حقيقة أمر الشاب الذي يعلم القارئ باطلاعه على ما قال من شعر أنه بريء. السؤال الذي يخطر لنا هو: كيف عبّر الشاب عن نفسه في أبياته، هل قالها بصوت عال وأمام من كانوا معه في السجن؟ لكن النص لا يذكر ذلك. وإنما يذكر أمراً آخر يدل على ذكاء خالد، وهو أنه دسّ للشاب من يُبلّغ عن أقواله وأفعاله، ويذكر ذلك بعبارة عابرة مختصرة لكنها تكفل وتضمن وصول المعلومات الضرورية إلى خالد للتأكد من براءة الشاب: «فسمعه الموكلون به.» لكن العبارة في الواقع تحيل إلى بعد آخر في غاية الأهمية في طبيعة السرد، وهي: هل كان الشاب يدرك أنه لا بد مراقب، ومن ثمّ قال ما قال شعراً بصوت مسموع يبلغ من حوله؟ أم أن الأمر لا يتعدى أن يكون مجرد «تنفيس عن النفس» إزاء ما سيواجه من مخاطر؟! ماذا لو لم يسجن، هل كان بإمكانه البوح بما في نفسه؟ بل لماذا لم يقل ما قال أمام خالد ولو على انفراد؟ يتضمّن في أسلوب السرد وطريقة تقديمه الإجابة عن هذه الأسئلة جميعها، وهذا ما يجعل سرداً تقليدياً يملك موجبات الدافع والمنطق السردي يعلّل ما يجري أو يقع في متن الحكاية.

فاحتمال تواطؤ الشاب وخالد معاً في أن يبرئ الشاب نفسه وأن تصل المعلومة لخالد في الوقت نفسه، كانت بحاجة إلى حيلة سردية، وهذا ما وقع وبشكل جيد! لكن كان على خالد القسري أن يوهم الشاب بعكس ما قد يفضح التواطؤ، وأن يزيد من وثوقية شك الشاب المتهم، فلم يستدعه مباشرة بعد سجنه، وإنما استدعي «لما جن الليل أمر بإحضاره عنده.»

المفترض أن المتهم الآن في حالة تجعله «يقر ويعترف» بحقيقة الأمر، إذ الوضع تحوّل من مجرّد دعابة أو تهمة إلى سجن وربما قصاص. وفي ضوء المعلومات الجديدة لن يكون بإمكان الشاب المتّهم أن لا ينكر الحقائق. لكن السرد مع ذلك لا يسلّم برواية الشاب رغم أن من الواضح أنه يتعاطف معها، إذ لماذا لا يكون الشاب قد افتعل إنشاد الأبيات لتبرئة نفسه وكسب عطف الوالي ومساندته ودعمه؟ على خالد القسري أن يبرهن على أنه إنسان عاقل لا يمكن «الضحك عليه»، أو أن يتمكن الشاب من تزوير حكاية أخرى للحكاية الأولى التي يقر فيها باقتراف الجرم. للتأكد من ذكاء الوالي لا بد من إثبات مدى صحة فراسته في الشاب، ويعبر النص عن ذلك بعبارات: «فلما حضر استنطقه (ماذا كان الاستنطاق، لا نعلم) فرآه أديباً عاقلاً لبيباً ظريفاً (نجاح الشاب في الاختبار) فأعجب به وأمر له بطعام فأكلا

وتحادثا ساعة» (أي أن النص ينقلنا في وصفه السابق إلى أن الوالي سعى إلى عكس إجراءاته السابقة من خلال بعض التصرفات التطمينية التي من شأنها التأكيد على أن الوالي يعرف الآن يقيناً: «علمت أن لك قصة غير السرقة» ولكنه (أي خالد) يتفهم تماماً ويقدّر موقف الشاب وهو سيسعى إلى مساعدته بأمور شكلية تخرجه مما هو فيه من تهمة السرقة وفي الآن ذاته يحفظ له حمايته لمحبوبته: «فإذا كان غداً وحضر الناس والقضاة وسألتُك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهات تدرأ عنك القطع» أخذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ادرءوا الحدود بالشبهات.»

هكذا انتهى خالد القسري إلى حل توفيقي يضمن براءة المتّهم ويحمي الفتاة من أن تكون موضع مساءلة من طرف أهلها أو ثقافتها. لكن لا بد لإنجاح هذا الاتفاق من أن يعود الشاب إلى سجنه وكأن شيئاً من الاجتماع لم يقع، ربما لضمان عدم المساس بشرف محبوبته وسمعتها! لكن في الوقت نفسه أصبح حل المشكلة دليلاً على شهامة ونزاهة الوالي صاحب الفراسة والقدرة على الوصول إلى متطلبات تحقيق جوهر العدالة! لو أن ما خطط له خالد سيقع في الغد، لكانت نهاية الحكاية سعيدة وعادلة ولكانت في الوقت نفسه حكاية جيدة.

لكن ماذا حدث؟ هل تصرف الشاب حسب الخطة؟ يظهر أن السرد يدخلنا في مكائد سردية أخرى لمزيد التشويق والإثارة من ناحية، ولتوضيح أن البطولة لا يمكن أن تكون حكراً على عاشق ذي مروءة أو والٍ ذي حصافة وفراسة! إذ للمروءة مرايا وأوجه مختلفة متعددة معقدة!

لقد كانت دعوة الوالي الناس لحضور محاكمة الشاب والنظر إلى عقوبته المنتظرة مجانية، كما يورد النص ولتلبية الدعوة أهمية بالغة. فهي بالضرورة ستجعل المحاكمة تلتزم بكافة الإجراءات المثالية للمرافعة القضائية. ويصور النص المشهد بشكل احتفالي: «فلما أصبح الناس لم يعد بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى. وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم، ثم دعا بالقضاة وأمر بإحضار الفتى.» لن نتوقف كثيراً عند حجم الحضور، لكن قد نتساءل ولماذا حضرت النساء وهن عادة لا يحضرن أمثال هذه المناسبات. بل إن النص يؤكد ذلك بلغة سردية في غاية الذكاء والنقل والدهاء «فأقبل يحجل في قيوده، ولم يبق أحد من النساء إلا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب.» من الواضح أن شاباً وسيماً يجر القيود يقدّم منظراً يستدعي الرثاء والشفقة وكان الأولى أن لا تحضر النساء لاحتمال وقوع التأثر الذي يذكره النص. «فأمر بتسكيت

الناس!» لكن في الوقت نفسه لم يُطلب من النساء مغادرة الموقع، مما يدفعنا إلى السؤال لماذا دعين في الأساس، ولماذا لا يؤمرن بالانصراف، فوجودهن قد يعطّل أعمال التقاضي؟! النص لا يقدم لنا تبريراً، لكن ربما يفصح السرد لاحقاً عن أسباب وجودهن!

ويصور النص المحاكمة بشيء من التفصيل الذي برز تفهماً ورغبة في مساعدة الشاب ومعاونته للخروج من ورطته وجرمه المشهود من ناحية، وإصرار الشاب – رغم كل ما جرى في المساء من لقاء بينه وبين الوالي – على موقفه وتأكيده على الاستمرار في تحمل مسؤولية السرقة. ولقد استثمر السارد أسلوب الحوار في تقديم المحاكمة لمزيد من الإيضاح والتشويق، وربما لدمج القارئ الذي قد يتحول من متعاطف مع الشاب ومدرك لجهود الوالي الذي يجد نفسه الآن أمام سكان المدينة أجمعين في وضع، أقل ما يقال عنه، أنه ليس مريحاً، مما قد يؤدي إلى تغيير المواقف عموماً: الانصراف عن الميل إلى خروج الشاب بريئاً مما هو فيه، وإكبار الوالي الذي استطاع أن يتضامن مع شاب في ورطة إلى المطالبة بتحقيق العدالة العمياء!

ولقد صاغ السارد الحوار بلغة فقهية في غاية الدقة. فالوالي – كما هو الحال نظرياً في الدولة الإسلامية – يلعب دور القاضي ولا سيما في قضايا الحدود. ولقد أدار عملية التقاضي بقدر كبير من الموضوعية والحرفية القانونية الفقهية. فهو يسأل الشاب بوصفه متهماً لم تثبت عليه الجريمة بقوله: إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول؟ واستخدام كلمة «يزعمون» في غاية الأهمية في هذا السرد «ما تقول» ضرورية ومهمة أيضاً. ليستمر الحوار في شكل مرافعة قضائية تقدم فيها كافة الذرائع التي قد تؤكد وقوع الجريمة أو تشكك فيها: وقوع الحادثة؟ سرقة النصاب؟ وجود حرز؟ احتمال وجود سبب دعا لارتكاب الجريمة؟

وكان المتوقع من النص، أن يستفيد الشاب من كل هذه التفاصيل لبذر شبهة تحول دون وقوع الحد، خاصة وأنه قد باح بما باح به في الأبيات التي جئنا على ذكرها وأن الوالي قد أوضح له معرفته بالأمر، بل واتفاقه معه أنه سيحول دون وقوع الحد إن هو تعاون معه، دون البوح بسر محبوبته. مما يستدعي السؤال وبقوة: لماذا خذل الشاب الوالي؟ لماذا هذا الإصرار على هذا الموقف الذي لا مبرّر له؟ هل الصفات التي جاء النص على ذكرها بخصوص الشاب كانت تقديرات وأحكاماً خاطئة؟ في الواقع يدفعنا النص للتخلي عن الشاب، لرعونته وعدم رغبته في

مساعدة نفسه للخروج من مأزق آخر أوقع فيه الوالي ونفسه أيضاً أمام جمهور محتشد أصبح شاهداً في القضية ولا بد أن تُحترم العدالة أمامه.

هذا ويعكس النص الموقف العام في سلوك الوالي: «فغضب خالد (بطبيعة الحال ومعه ضمناً الجمهور كله) وقام إليه بنفسه (وكأنه يقول له: لماذا خذلتني ولم تحترم الاتفاق الذي جرى بيننا، هل تهزأ بي وبإجراءات العدالة؟) وضربه على وجهه بالسوط (وكأنه يقول لقد أحرجتني ووضعتني في موقف يدفعني لاتخاذ حكم أنا أعلم أنه جائر ظالم لكن لم تترك لي فرصة) وأنشد – كما يظهر – أمام الناس بيتاً من الشعر يؤكد موقفه المهزوم:

يريد المرء أن يُعطى مُناه ويأبى الله إلا ما أرادا

هكذا إذن يسدل الستار – ما لم يكن هناك كيد أو دهاء سرد آخر في شكل مفاجأة غير مرتقبة – على المشهد: «دعا بالجلاد ليقطع يده.» وكانت هذه العبارة تكفي. لكن المزيد من التشويق، وعلى طريقة السينما – بالحركة البطيئة يعمل السارد على تجسيد المنظر المخيف والمثير بالعبارات التالية: «فحضر وأخرج السكين، ومدّ يده ووضع عليها السكين.» إذن لم تتم عملية إقامة الحدّ المقرّرة بشكل سريع لإنهاء هذه الحالة المتعبة لكافّة الأطراف، وإنما على العكس كانت تتمّ ببطء كما لو كان مقصوداً. فلماذا كان السرد على هذه الشاكلة؟

سرّ العشق يقبله الجميع

يذكر النص العبارة التالية: «فبرزت جارية من صف النساء عليها آثار وسخ، فصرخت ورمت بنفسها عليه (الشاب) ثم أسفرت عن وجه كأنه البدر.» كلمة برزت هنا تصوّر عنصر المفاجأة والفعل غير المتوقع. وكذلك «جارية من صف النساء عليها آثار وسخ» يجعلنا نعيد التساؤل لماذا تحضر النساء وهن عاطفيات، وما شأن هذه الجارية التي عليها آثار وسخ؟ لكن النص بعد أن امتلك زمام المبادرة في إحداث المشاهدة والمباغتة، بكيد سردي متعمّد، كان عليه أن يبرر ظهور هذه الفتنة وليس سواها، ومن ثم كان المفترض أن تكون هناك النساء بين الحشد الذي شهد المحاكمة «أسفرت عن وجه كأنه البدر» هي وإن كانت «عليها آثار وسخ» إلا أنها فتاة فاتنة جميلة، تستحق أن تسترعي اهتمام الجميع: «ارتفع للناس ضجة عظيمة كادت أن تقع منها فتنة» حسم السرد الأمر، ظهور الفتاة لم يكن عرضياً، ووجودها سيؤخر بالضرورة إجراءات القصاص، بل ولقد «دخل الجمهور على الخط» ولم يعد بالإمكان المضي في إجراءات القصاص وفرض الهدوء، فبروز الفتاة الجميلة دفع الناس إلى

طلب توضيحات جديدة لم تكن قائمة من قبل.

هنا لا بد من أخذ المبادرة وتوجيه مسار المنظر القائم إلى ما دفع الفتاة للبروز في هذا الوقت بالذات ولماذا رمت بنفسها على المدان؟ والأولى أن يكون صاحب هذه المبادرة الفتاة نفسها – أو هكذا يظهر الأمر الطبيعي. وهذا ما وقع فعلاً: نادت (الفتاة) بأعلى صوتها: يا مولانا الوالي إليكم بهذه الرقعة!

لماذا لم تفصح الفتاة عما في الرقعة، وجعلت الأمر موجهاً للوالي، هذا ما يكتمه السرد، لكن في الوقت نفسه يعلن أن ما يعرفه واطلع عليه الوالي لم يتوافر لجمهور الناس. وكانت الرقعة تحمل أبياتاً شعرية تؤكد ما يعرفه الوالي سلفاً من أبيات الشاب، أي أن الشاب يحبها وتحبه ولكنه آثر أن يعذب حتى لا يفضح محبوبته أمام أهلها، وترجو الوالي:

فهلاّ على الصبّ الكئيب لأنه كريم السجايا في الهوى غير سارق

بمعنى أن الفتاة ترجو الوالي أن يمضي حكم الشرع فيه وأن يعالج الأمر بطريقة أخرى أشرف وأكرم للجميع، حتى لا يقع ظلمٌ غير مقصود. هكذا يفاجئنا السرد مرة أخرى وكان الموقف في غاية التعقيد والصعوبة: «فلما قرأ (الوالي) الأبيات، تنحى وانعزل عن الناس وأحضر المرأة...» مرة أخرى يجد الوالي نفسه أمام ضرورة إعادة التحري، وكذلك الركون إلى قيادته وفراسته ومروءته، ومن ثم عليه إعادة الحسابات، لكنه الآن مدفوع لمعرفة تفاصيل الأمر ليتوثق منه وأن لا يندفع عاطفياً إلى اتخاذ موقف قد لا تشفع الأدلة المحسوسة للخروج بها إلى النتائج التي يرغب.

لذا كان عليه أن يعرف تلك التفاصيل من الفتاة التي على ما يظهر وجدت نفسها مضطرة إلى اتخاذ موقف، كانت تعلم أن حبيبها يسعى إلى عدم إعلانه خوفاً عليها. فالفتاة هنا في واقع الأمر تضع حياتها على المحكّ وهذه شجاعة أم تهور منها؟ أمر ينبغي حسمه والآن. ولقد روت الفتاة الحادثة بتفاصيلها التي لا تتعدى أن تكون مجرد لقاء بين عاشقين وجدا نفسيهما أمام «فضيحة» انكشاف أمرهما أمام من يخشون معرفتهم بأمرهما! وكيف أن الشاب «اعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لا يفضحني بين إخوتي، وهان عليه قطع يده لكي يستر علي ولا يفضحني، كل ذلك لغزارة مروءته وكرم نفسه!».

إذن توضح الفتاة أبعاد المسألة مؤكدة أننا أمام شاب ذي مروءة وكرم نفس، وهو وإن بالغ في الإيثار ودفع التضحيات من أجل المحبوب، فإنه ليس بالمتهور أو

الطائش أو اللاعب بأعراض الناس، لكنها التقاليد والعادات التي ليست موضع نقد النص، فالنص يتجاوز ذلك بسبب مفهوم «الفضيحة» الذي كررته الفتاة مرات، في مجتمع «الشرف» و«العرض». بمعنى ضمني، ما كان ينبغي أن يفتضح أمرهما، حتى وإن كان لهما الحق في أن يتحابا، فالحب مقبول في مثل هذه الثقافة إن لم «يُفتضح أمره»!

قد يتوقع البعض أن يلوم الوالي الفتاة ويرميها بقلة الحياء والأدب وإحراج ذويها، لكن الكيد السردي يتدخل هنا مرة أخرى. ليس في النص ما يقلل من شأن الشاب أو شرف الفتاة أو عرضها، فكلاهما محترم ويُقدّم على هذا الأساس في النص! بل الأهم من ذلك يتمّ تقديمهما بوصفهما من أصحاب المروءات ومن ذوي المجتمع الجديرين بالاحترام! لكن في الوقت نفسه لم يعاتب النص الأهل وكيف أنهما اقتحما خلوة محبين أو انتهكوا حرمة خصوصيتهما في لقاء حبّ! على العكس من ذلك لا يتناول النص هذا الأمر، فهو من المسكوت عنه من ناحية، وليس محور الاهتمام السردي! ولتأكيد مدى الاحترام يؤكد النص على موافقة الوالي (ممثل الثقافة والمجتمع في أرفع أشكاله) على وصف الشاب بالمروءة وكرم النفس بقوله: «إنه خليق بذلك!».

هل هذه العبارة توضح تغيراً آخر في موقف الوالي الذي كان في غاية الغضب من تصرفات الشاب المتهم، حتى أنه لم يتورّع عن ضربه على وجهه بالسوط؟ وإن كان كذلك فكيف سيعبّر عن تغيّر موقفه من غضب إلى إعادة احترام الشاب وتقديره وأمام الجماهير الغفيرة المحتشدة؟ هذه مسألة في غاية الأهمية، لضمان وقوع تحوّل وقبول واحترام للعدالة ونزاهتها من ناحية، وحتى تصبح تصرفات الوالي معقولة مقبولة؟

هنا يتدخل السارد مضيفاً العبارة التالية: «ثم استدعى الفتى إليه وقبّل ما بين عينيه.» يا له من موقف غريب بعد الغضب والضرب بالسوط، ربما لشعوره بالغبن وأن الشاب يستفزه، رغم أن فراسته تؤكد له ما أكدته الشابة في حوارها معه، فكان عليه أن يتراجع عن موقفه العلني. فهل هذا من المروءة؟

الآن أصبحت الأمور منوطة بالوالي الذي عليه أن يحسم الأمر ويواجه المشكلة: مشكلة تقاليد ينبغي أن يحترمها الجميع ويتصرف بناء على قيمها وأعرافها من ناحية، ومن ناحية أخرى أن يتجاوزها، بشكل يحفظ كرامته وسمعة جميع الأطراف، بل وتأييد وقبول المجتمع الذي بإيمانه بهذه التقاليد والأعراف جعلها قانوناً واجب

الاحترام وانتهاكها مآله العقاب. فكيف سيفعل ذلك؟ يظهر أن النص يدفعنا إلى استراتيجية أخرى في التناول، ليس على الفتاة أو الفتى أن يشعرا بأنهما ارتكبا أخطاء أو تجاوزا حدوداً اجتماعية – ثقافية ما، وإنما على العكس من ذلك، أهل الفتاة وبالذات ولي أمرها، هو الذي يجب عليه الآن، وبعد أن انكشفت الأمور وعُرف المستور، أن يشكر الشاب ويجازيه بدلاً من القصاص التكريم لحرصه على حفظ عرضه وصيانته من العار.

إن «قلب الطاولة» كما يقولون أصبح الخيار الوحيد وربما الأقوى أمام الوالي وعلى ولي أمر الفتاة وقد آلت الأمور بما آلت إليه، أشرف له أن يكون صاحب مروءة، بدلاً من أن يكون صاحب حق أو معتدى عليه!! وبطبيعة الحال لن تكون ابنته أكثر شجاعة ومروءة في سعيها إلى التضحية بنفسها، كما ضحى الشاب من أجلها بنفسه، ويكون هو (الوالد) أقل تضحية ومروءة؟!

لكن، وهي «لكن» كبيرة، هل ينبغي أن يتم تجاهل الأعراف والتقاليد، التي من المروءة التمسك بها، حتى في حالة فريدة استثنائية، ثبت فيها حسن الظن وكريم الخصال؟ إنها مسألة في غاية الأهمية على المستويين النظري والعملي. هل نتجاوز القيم والأعراف والتقاليد في الحالات التي تروق لنا؟ وإن تصرفنا بمثل هذا الأسلوب، من سيقرّر هذه الحالات؟ أو الاستثناءات؟ أولا يعدّ ذلك خرقاً للأعراف المرعية ومن ثم تلاعباً بها؟ أيضاً كيف سيتسنى للوالي أن يأمر باحترام الأعراف والقيم والتقاليد بعد الانتهاء من هذه الحالة التي حظيت باهتمام الرأي العام الذي حضر المرافعة، والتي كان يؤمل بأن تنتهي من خلال الحفاظ على النظام العام باستخدام الشكليات الإجرائية؟

يقودنا النص مرة أخرى إلى ضرورة أن يتصرف الوالي بمسؤوليته ودرايته حتى تؤول الأمور إلى نصابها ويتمّ تجاوز هذه الحالة الفريدة. فكيف يمكن ذلك؟ وبشرط أيضاً أن يكون المخرج داخل حدود الفقه وفي سياقه وسياق العرف القائم في إطار تلك الثقافة والمرحلة التاريخية؟ إنها فعلاً معضلة أخرى يعالجها السارد بذكاء. فأولاً وقبل كل شيء على والد الفتاة أن يرتفع لمستوى الأحداث ويتحمّل دوره بحسب ما تمليه عليه مروءته. وقد فعل ضمناً كما يوضح النص. وأن تتحول مسؤولية الفتاة التي أمر لها الوالي بعشرة آلاف درهم، ربما حتى تصبح ذات قدرة وذمة مالية تخوّلها التصرف بشكل مستقل عن إرادة أسرتها. لكن يبقى الجانب القانوني/ الفقهي: ولايتها والعرف والتقاليد تجعل والدها وإخوتها في حرج أن

يزوجوها ممن اعترف أمام الملأ بحبها بل وتجاسر على مواعدتها وزيارتها في دارهم. إنه إن فعل سيكون موضع تندر ومثلبة بعض الناس حتى وإن لم يكن في الحال، فالأمر محتمل في المآل.

حل لا يمنع التقليد لكنه يبقي على المرؤة

هنا يتدخل الكيد السردي مرة أخرى بعبارة في غاية الأهمية وتتماشى مع كرامة الوالد وتؤكد على احترام الأعراف المرعية: «وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه» وسيكون لهذا الطلب من طرف الوالي الكرامة والقبول كما تقتضي الأعراف والمروءة بذلك، فيأتي جواب والد الفتاة: «قد أذنت أيها الأمير بذلك.» إذن انتقلت ولاية أمر الفتاة من والدها إلى الوالي وهو أيضاً القاضي، بحيث لم تخالف الأعراف، ويكون قد تصرف بنبل وكرامة في أمر ما كان بالإمكان أن يقوم به.

ماذا عن الجمهور الذي يوضح السرد أنه كان بمنأى عن كل هذه التفاصيل التي تمّت بعيداً عنه، أليس له الحق في أن يعرف على الأقل شيئاً مما يجري، يبرّر ويفسّر التحوّلات والتغيّرات في المواقف والأحكام؟! لتوضيح ذلك اكتفى النص بعبارة «فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة» بطبيعة الحال موجهة للجمهور وللفتى في الآن نفسه، فالجمهور شهود للواقعة لكنهم ليسوا طرفاً فيها. وأمام الناس وبحضورهم أجرى الوالي/ القاضي إجراءات عقد الزواج: من إيجاب وقبول، لم يعترض عليها الشاب وإنما قبل التزويج وعلى المهر الذي قال به الوالي.

لكن حتى تكون النهاية سعيدة رسمياً، أمر الوالي: بحمل المال إلى دار الفتى «مزقوفاً في الصواني» وهذا أمر فيه التأكيد على رسمية وقوع الزفاف بإشهاره، ولكن أيضاً بإكرام العاشقين بالاحتفال بالنهاية غير المتوقعة لهما. أما الرأي العام الذي عليه أن يحافظ على قيمه وأعرافه فلا بد من أن يكون على قناعة من أن ما تمّ إنما يؤكد على عظمة قيمهم وأعرافهم وثباتها، وأن النظام الثقافي السائد قادر على تجاوز الحالات الاستثنائية التي تحظى بقبول الناس وتقديرهم واحترامهم وتعاطفهم، فيورد النص: «وانصرف الناس (أي انصرفوا بهدوء دون أن تكون هناك فتنة أو اختلاف في الآراء فيما بينهم كما يؤكد على ذلك السياق) ولم يبق أحد في سوق البصرة إلا نثر عليهما اللوز والسكر حتى دخلا منزلهما (لم يكن لهما شيء من ذلك من قبل لكن الاعتراف الرسمي والجماهيري جعل لهم ذلك أيضاً!) مسرورين مزقوفين (بعد أن كان التهديد بالقصاص أو العار والفضيحة مصيراً منتظراً وواقعياً!).

يختتم الأصمعي حكايته بعبارة رشيقة ذات دلالة، ترفع السرد من العبارة المكررة «وعاشوا في التبات والنبات وخلفوا صبيان وبنات» أو فكرة النهاية السعيدة المفرحة بقوله: «فما رأيت يوماً أعجب منه أوله بكاء وترح وآخره سرور وفرح» وهنا كلمة «رأيت» تدل على حسن الاختيار في إيهامنا بأن الأمر قد وقع وهو ينقل مشاهدات راوية مشهور بالكفاءة! وبقية العبارة تؤكد على المفارقة بين البداية والنهاية دون أن تكون تلك النهاية مرتقبة بالضرورة!

آليات السرد: الدهاء والكيد السردي

الآن وبعد عرضنا للحكاية بشكل موجز، نرجو أن نتمكن من إبراز بعض الأسئلة عن أسلوب السرد المتّبع في تقديم أحداث الحكاية. وسنقدّم مجموعة من الاعتراضات على الوقائع لنخلص إلى توجيه النظر إلى كيفية تقديمها سردياً، ومن ثمّ الادعاء بأن هذا الأسلوب السردي كان قصدياً، وهو ما أسميناه: دهاء أو كيداً سردياً.

السؤال الأول: لماذا لم يلفت شكل الشاب المتّهم بالسرقة أهل الفتاة، أو أصحاب الدار بالأصح؟ فكما يوضّح لنا النص ارتاب الوالي من أول وهلة في أمر السرقة بسبب شكل الشاب وما يتمتّع به من صفات نبيلة، وكذلك بسبب رباطته وسكينته؟ فالسؤال: لماذا لم يتشكّك صاحب الدار وأولاده في أمره؟ خاصة أن ما يدفعهم إلى التشكك أن الشاب مقرّ معترف بالتهمة التي وُجّهت إليه؟ يظهر أن أصحاب الدار كانوا يحسّون بذلك ويدركون أن في الأمر شيئاً ما، لكنهم كانوا، وبوعي، مصرين على تجاهل الأمر بسبب ما قد يدفعهم إلى الوصول إلى نتائج لا يرغبون في التعرف عليها، من مثل أن تكون له علاقة بإحدى بناتهم! والنص يجعلهم حريصين على أن يستمر الشاب في تأكيد حكاية السرقة على أي حكاية أخرى حتى لا تقع عليهم تبعات فضيحة هم لا يرغبون في الإقرار بها؟

ربما كان من المستحسن أن نبحث عن قرائن وشواهد على ما ذهبنا إليه. النص غامض في هذا الموقف، وغموضه هو ما يجعلنا نرجّح ما ذهبنا إليه. فلو كان أصحاب الدار يرغبون في الحصول على ما سُرق منهم، لتمّ لهم ذلك، ومن ثمّ ما الحاجة إلى الإصرار على رفع أمر الشاب إلى الوالي دون تدخل يذكر في مجريات ترافعه أمام العدالة؟ يظهر لي بشكل غير مباشر، أنهم كانوا يسعون، وقد ثبت لديهم أنه لم يسرق من دارهم شيئاً، أن تثبت تهمة السرقة على الشاب بعد أن عرف عنها «قوم» أصحاب الدار، إسكاتاً لأية تخريصات أو أقاويل!

المسألة الثانية على مستوى السرد لماذا استخدم الشعر (رغم أنه شعر غير

جيد المستوى) في متن النص كدليل على البراءة أو إبراء للذمة عند اتخاذ موقف (في حالة الوالي)؟ كما هو معلوم القريض يتطلب أناة وتفكيراً وهو غالباً قول مقصود تمّ التفكر فيه سلفاً من ناحية، وإن كُتب على رقعة فيضاف إلى ذلك أمر الكتابة. لكنّ هناك بُعداً آخر، قول الشعر موهبة تحتاج إلى ثقافة ومعرفة، وهو أداة مقدرة محترمة في المجتمع العربي التقليدي، ومن ثمّ أبلغ الترافع وتقديم الشكوى ما كان شعراً أو رمزاً، ومن ثمّ فإن الشاب والوالي والفتاة عندما جاءت ساعة الحسم تكلموا شعراً. والقضايا والمواقف التي وجدوا أنفسهم فيها حاسمة وحساسة، وكان قول الشعر أنجع وسائل الإقناع السردي للمتلقي العربي الشعبي الذي سيجد أن الأبيات لا تقدم فقط تبريرات مقبولة معقولة وإنما إنسانية وجدانية لا تقول بها سوى نفوس كبيرة، وهي لا تقول إلا الحق. هنا يظهر نوع من أساليب تجاوز الإقناع بالجدل إلى الإقناع وبالتسامي والرمز. فالوصول إلى قناعات الجمهور تتطلب مزيداً من تأييدهم وتعاطفهم، حتى وإن كان السياق السردي لا يمكّن الجمهور الشاهد من الدراية بهذه الأبيات، فالجمهور الأهم في آلية سرد الحكاية هم القراء المطّلعون على كافّة التفاصيل، حتى ما كان منها خلف الكواليس!

أما القضية الثالثة التي نجد صداها في آلية السرد، فهو السؤال حول تعمّد الكذب: هل هو من المروءة أم ينافيها؟ الإجابة الواضحة أن الكذب يتعارض جذرياً مع المروءة، فكيف يمكننا إذن أن نقبل أن الشاب صاحب مروءة وهو يكذب؟ لكن مهلاً، ومن قال إنه كذب؟ أليست السرقة هنا تحتمل أكثر من دلالة ومعنى، ماذا لو صرفنا المعنى إلى ما يضمره في وجدانه من أنه سرق قلب فتاة، رغم أن قلبها يعادل النصاب، ولقد أمعن في الإصرار على حبها رغم أنها في «حرز» من الأعراف والتقاليد التي لا تبيح له ولأمثاله الجرأة على حبها، وبطبيعة الحال لأهلها الحق كل الحق في اتهامه وهم لم يكونوا شركاء في تورطه، بل على العكس كانوا يدفعونه بعيداً عن ذلك. فهو إذن سارق وسارق مع سبق رصد وتربص، سارق لحب فتاته ووجدانها، وهذا مما يكمل مروءته، ومن ثم كذبه هو صدقه. ومروءته كانت في الإمعان بصدقه فيما يبوح وعلى غيره أن يفهم ما يرمي إليه!!

أما القضية السردية الرابعة، فهي تصرفات الوالي التي تظهر متأرجحة بين العفوية والتخطيط القائم على دهاء وحنكة وفراسة. فهو قد تشكك من الوهلة الأولى بسبب هيئة الشاب واختبر رجاحة عقله، لكن إصرار الشاب على صحة التهم الموجهة إليه، جعلت الوالي يصرّ على ضرورة سبر غوره ومعرفة حكايته. دسّ

العيون لنقل ما يجري للشاب أو يقع منه ورفع ذلك إليه، مقابلته مع الشاب وتأكده من صدق حدسه وكذلك دعوته للجماهير بالحضور بل ودعوة النساء! وإن دسّت في ثنايا السرد، لكنها توضح أنه أدرك أن في الأمر فتاة وأن حضورها قد يدفعها للاعتراف، ومن ثمّ مواجهة الأمر. وكذلك أسلوب المحاكمة وغضبه وتعنيفه الشاب، الذي ظهر كما لو كان غضباً فعلياً رغم الاحتمال أن يكون جزءاً من تمثيلية أخرجها وأدارها ولعب أدوارها الوالي نفسه، بل والبطء «المتعمّد» في إيقاع حد القصاص، كل هذه المقدمات تجعلنا عند الاستعادة لأحداث الحكاية نرجح أنها قد استنفرت شجاعة الفتاة ومن ثمّ اقتحامها الساحة، وما لباسها الرث إلا دليل على أن أسرتها ربما سعت إلى الحؤول دون حضورها فتنكّرت وحضرت. أما كتابتها لرقعة عليها أبيات فهذا دليل إضافي سردياً على أنها كانت تخطط للقيام بذلك إن دفعتها الظروف إليه! ما قام به الوالي من حفظ ماء وجه والد الفتاة، ومن ثمّ كسب الجولة لصالح الجميع دون أن يكون هناك خاسر: والد الفتاة، الفتاة، الشاب، الوالي، الثقافة، أمر لم يكن بالإمكان ضمان وقوعه إلا عن طريق أسلوب السرد الذي يقدم نتفاً من المعلومات بحسب السياق، رغم أن الحكاية تقليدية جداً.(٣)

أما القضية الأخيرة فهي ما السر؟ فحكاية الشاب كانت سراً لم يبح به، لكن كافة الشواهد الخارجية تؤكد أن هناك تواطؤاً، حتماً ربما من الوالي الذي عليه أن يكفل سلامة الجميع مع الحفاظ على هيبة العدالة ونزاهتها. الجميع يدركون السر سلفاً. أليس «السر» في هذا المقام هو التأكيد على إصرار الجميع على أن لا يواجهوا حقيقة معرفتهم بأمر ما؟! سر الحكاية أن حب الشاب للفتاة كان أمراً تقتضيه المروءة لكن الجميع تآمر على أن يلتزم بآداب المجتمع المصنعة حفظاً للوجه، ولو كان على حساب مواجهة الحقيقة العادية. ولعمري هذا النوع من المواجهة هو الأصعب دائماً لذا كانت آلية سرد الحكاية أبلغ من الحكاية وأكثر منها قدرة في سبر أغوار النفس الإنسانية المفطورة على حب الفعل الجميل حتى وإن أنكرته أو تنكّرت له. السرّ هو أن السرّ يعرفه الجميع، لكنّ الكلّ يتوخّى الحذر من مواجهة تبعات ذلك «السرّ». وعندما نصرّ على أن لا يبقى السرّ سرّاً نكون قد حقّقنا لذواتنا أعلى مراتب التحرّر والانعتاق. وربّما ما تؤكده الحكاية أن أعظم بوح وأجمل سرّ ينكشف هو أن يحب إنسان إنساناً؟ ويصبح ذلك أعمق وأنبل وأعظم عندما يكون فتى وفتاة!!

(٣) المرجع السابق، «حكاية العاشق ذو المروءة»، ص ٥١–٧٤. وكافة الاقتباسات التالية هي من الحكاية نفسها وفي إطار الصفحات المذكورة.